أهداف التربية الإسلامية

للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

تقوم التربية الإسلامية على عناصر أربعة :

أولها — تهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، وتقويم اللسان .

وثانيها — تمكين كل عامل من أن يعمل بمقدار طاقته ، وانتفاع الجماعة من كل الكفايات ، وتسهيل ذلك .

وثالثها — الإنتخاب الطبعى ، وإشراف الجماعة على توجيه القوى المختلفة للعمل .

ورابعها — التربية العسكرية العامة ، بحيث يكون كل مسلم مجاهداً مقاتلا إذا طلب للميدان .

هذه عناصر التربية الإسلامية ، وهى تسير بالناشئة على سنة التدرج والإعتماد على أدوار السن فى كشف المواهب والخواص التى تؤهل كل واحد لما يستطيع .

وإنه فى هذا السبيل نجد بعض المناهج متحدة ، وبعضها متنوعة ، وهى متنوعة فى المراحل الأخيرة ، متحدة فى الأولى ، ومتقاربة فى الثانية ، وتكون مختلفة متلاقية مع اختلافها فى خدمة المجتمع فى الأخيرة .

فى المرحلة الأولى يتربى الجميع تربية واحدة ، أساسها تهذيب الروح وتقوية اللسان ، وإيقاظ الحافظة ، والحث على التفكير والتأمل ، وبعث كل ماطوى فى عقل الطفل وقلبه من ينابيع صالحة ، ونزوع مختلف ، وإنه فى سبيل تربية الروح والوجدان ، كان لا بد من الدين ، والعناية به ، وتلقين الطفل له ، وطبع مشاعره به ، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم عامة المسلمين بأن يعلموا أولادهم الصلاة ، ويحملوهم عليها بالترغيب والتأديب ، ولا يتجاوز ذلك ، وإن الصلاة إذا أديت على وجهها هى التى تهذب الوجدان ، وتجنب العصيان ، ولذا قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » .

ويلاحظ أنه فى المرحلة الأولى ويعمل أيضاً على تقويم اللسان ، وقد سلك المسلمون الأولون فى ذلك سبيلين :

أحدها — إرسال أولادهم إلى البادية ليتفصحوا فيها ، ويعودوا النطق العربى ، وقد كان ذلك مستحسناً فى عصر الأمويين والعباسيين ، لأن العجمة قد كثرت فى المدائن الإسلامية ، فكان لا بد من أن يرسلوهم إلى البادية ليعلموا اللسان العربى الذين لم تشبه أعجميه .

وثانيهما — تحفيظ القرآن الكريم ، وإن ذلك كان سائداً فى كل الأمصار الإسلامية ، فالطفل المسلم لا بد أن يحفظ حظاً من القرآن الكريم ، وكثيرون كانوا يحفظونه كله ، وأولئك هم الذين حفظوا تواتر القرآن ، وكان لهم حفظه ، كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وفى هذه المرحلة يعلم فرائض الإسلام الدينية والخلقية ، ويحفظ أيضاً طائفة كبيرة من السنة النبوية التى تتعلق بعلاقة الناس بعضهم مع بعض ، وبما يتحلى به المؤمن من خلق كريم .

ومع هذه التربية المعنوية يربى على الرماية ، والسباحة ، واستعمال السلاح ، وركوب الخيل ، وبعبارة عامة يربى على ما يقوى جسمه وخلقه وعقله ودينه .

وبهذه تتجه التربية الأولى إلى تربية نواح ثلاث : الناحية الدينية ، والناحية اللسانية والعقلية والإجتماعية ، والناحية الثالثة : الناحية البدنية والعسكرية ، وبذلك يجتمع فى الغلام منذ نعومة أظفاره دين قوى ، وعقل قوى ، وإرادة قوية وجسم قوى ، وتكون بها كل المعانى الإنسانية فيه قوية متناسقة غير متنافرة .

وفى المرحلة الثانية يجب أن تتنوع بحسب ما بدأ من ذكاء وميول ، فمن بدت ميوله نحو الثقافة والتعليم الذى يسير بها نحو التخصص والتعمق سار فيه ، عند حد المرحلة الأولى ، وقف عند ذلك عاملا يدوياً ، والمجتمع محتاج إلى هذا النوع ، وقد وضح هذا المعنى الشاطبى فى الموافقات ، وبين أن من الناس من تقف بهم ميولهم وقواهم عند المرحلة الأولى فقال :

قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » ثم وضع سبحانه وتعالى فيهم العلم على التدريج والتربية ، تارة بالإلهام كما يلهم الطفل التقام الثدى ومصه ، وتارة بالتعليم ، فطالب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما تستجلب به المصالح ، وكافة ماتدر أبه المفاسد إنهاضاً لما جبل فيهم من تلك الغرائز الفطرية والمطالب الإلهامية ، لأن ذلك كالأصل العام للقيام بتفاصيل المصالح ، ويبين أن إيقاظ القوى الإنسانية يكون فى نفس الطفل بتعليم مبادىء الشرع وتنقية الإعتقاد ، ومبادىء العلوم المصلحية الدنيوية ، ثم يقول رضى الله عنه : « وفى أثناء العناية بذلك يقوى فى كل واحد ما فطر عليه ، وما ألهم من تفاصيل الأحوال والأعمال ، فيظهر فيه ويبرز على أقرانه ، فلا يأتى زمان التعقل إلا وقد نجم على ظاهره ما فطر عليه فى أوليته ، فترى واحداً قد تهيأ لطلب العلم ، وآخر لطلب الرياسة ، وآخر للتصنع ببعض المحتاج إليه ... إلى آخر سائر الأمور .

فالمرحلة الأولى فيها كشف للمواهب ، وتثقيف إنسانى عام ، لا يستغنى عنه مسلم ، بل لا يستغنى عنه إنسان .

وفى المرحلة الثانية يكون التوجيه ، كل لما هيىء له وبشر ، وما تمده به قواه .

والمرحلة الأخيرة هى مرحلة التعمق ، وهى تكون لمن بزغت شمس ذكائهم ، وبدا نورها مبشراً بأن هذا سيكون منه فائدة محققة للمجتمع إذا اتجه إلى التخصص والتعمق فى علم من العلوم التى لاتستغنى عنها الأمة ، فهذا يتجه إلى الطب وذلك إلى علم اللغة ودقائقها ، وذاك إلى علم الشريعة وفقهها ، وآخر إلى علم القيادة ورسم الخطط فيها .

وإن التوزيع بهذه القوى يكون بالميول أولا ، والقدرة على ما اتجه إليه ثانياً ، فهو نوع من الإنتخاب الطبعى ، لا التوجيه القسرى ، ولا يكلف أحد نفسه ضد طباعه ، وضد قدرته .

وإن التخصص والتعمق فى مطلب من هذه المطالب السامية فرض كفاية فى الأمة ، فيجب أن يكون فى الأمة مهندسون وأطباء ، ورؤساء ، وقادة جيش ، وغير ذلك ، ولكل نوع من هذه ناس يميلون إليها ولهم قدرة عليها ، وواجب

الأمة أن تسهل ظهور مواهب هؤلاء أولا ، وتوجيههم إلى ما يوافق ميولهم ثانياً ، وتسهيل سبل التعمق لمن هم أهله ثالثاً ، ويقول فى ذلك الشاطبى :

« وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قوم ، لأنه سير فى طريق مشترك ، فحيث . وقف السائر فقد وقف فى مرتبة يحتاج إليها فى الجملة ، وإن كانت به قوة زاد فى السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات فى المفروضة الكفائية ، وهى التى يندر من يصل إليها ، كالإجتهاد فى الشريعة والإمارة ، فبذلك تستقيم أحوال الدنيا والآخرة » .

وإن ذلك المنهاج الذى رسمه علماء المسلمين الذين سماهم الشاطبى — الربانيين — هو الذى يتفق مع كل العصور ، ومع عصرنا الحاضر ، ولعله يكون علاجاً للتعليم فى مصر ، وإنه فى تدرجه يشبه الهرم فإن قاعدته تسع الأمة كلها ، فإذا علا ضاق على ذوى المواهب وكل غلو فيه يتجه إلى ذوى نبوغ أشد ، ومواهب أغزر ، حتى إذا علا إلى قمته كان ضيقاً لا يتسع إلا لذوى الكفايات الطبيعية العالية الذين يتعمقون ، ويستنبطون ويسيرون بالإنسانية إلى الأمام وبمقدار قوة النبوغ والتعمق فى هؤلاء تقاس تقدم الأمة ، فعظمة الأمم العلمية لا تقاس بعدد المعلمين ، وإنما تقاس بقوة النابغين .

وإننا فى مصر نفرض أن أكثر من يخرجون من المرحلة الأولى صالحون لكل فروع الثانية ، ومن يخرجون من المرحلة الثانية ، نفرض أنهم جميعاً صالحين للثالثة — وهى الأخيرة ولذلك يكون فيها أكبر عدد ، ثم تقعد بهم مواهبهم فإما أن ينبت الطريق فى وقت غير مناسب ، وإما أن يتمموا ، ولكنهم يخرجون من الكليات غير متفوقين ، وليس لهم من التخصص والتعمق إلا الاسم ، وبذلك تكون الأمور الفكرية والإجتماعية فى اضطرات .

الحرية فى التعليم :

اتسم التعليم فى الإسلام بالحرية ، فقد كان كل أمرىء يعنى بتربية ولده بالطريقة التى يرتضيها ، لا يرهقه أحد فى أى أمر من أمور ولده فمنهم من كان يحصر المعلمين

لولده ، ومنهم من كان يرسل ولده إلى مدارس صغيرة هى ما كان يسمى فى الماضى الكتاتيب ، حتى إذا اشتد الغلام وترعرع اتجه إلى طلب العلم من رجاله ، فهذا يتجه إلى الحديث ، ويطلبه فى مظانه ، ويرحل إلى رواته أينما كانوا حيثما حلوا ، وهذا يتجه إلى الفقه ، فيلتزم فقيهاً يتخرج عليه ، ولكنه لا ينقطع عن غيره انقطاعاً تاماً ، ومنهم يتجه إلى الفلسفة يطلبها من مظانها ، ومن رجالها ، ومنهم من يتجه إلى العربية ، فيلتزم علماءها ، ثم يبحث هو من بعد ، فكان كل عالم كأنه مدرسة قائمة بذاته .

وإذا كان ذلك العالم ليس له موارد مالية أجرت عليه الدولة ما يكفيه وأهله بالمعروف ، وهو يعمل حراً لا سلطان لأحد عليه إلا ضميره الدينى ، وحق العلم عليه .

وقد أنتجت تلك الحرية العلمية التى كانت تسيرها الرغبة الحقيقة أطيب النتائج ، فهذه المكتبة العربية التى طبع بعضها ، وما زالت الدفائن المطمورة التى لم تطبع أضعاف ما طبع يشاهده ، ولا نجد فى الحاضرين من عنده همة الماضين فى الإنياج .

الانتخاب الطبيعى :

وإن هذه الحرية فى طلب العلم وتدريسه جعلت قانون الإنتخاب الطبيعى يسير فى مجراه من غير أى عائق يعوقه ، فإن الطفل يتعلم بالقدر الذى يتعلم بالقدر الذى يغذى عقله ، ويبرز مواهبه ، وذلك قدر مشترك ، فمن وقفت به مواهبه فى هذا الموضع وقف فيه ، وخرج إلى الحياة عاملا فيها بيديه ، والمجتمع يحتاج إلى العاملين بأيديهم ، وأجسامهم ، ولو كان الناس جميعاً علماء ، أو فنيين متخصصين ، ما وجد الزارع الذى يفلح الأرض ، وما وجد الصانع الذى يقف على الآلات وغيرها مما نحتاج ويشرف عليه المهندس البارع ، وما وجد العامل الذى يشرف على نقل الأشياء أو ينقلها بما آتاه الله تعالى من قوة جسمية وهكذا .

وإن الذين تتبين بعد الدور الأول مزاياهم العقلية ساروا فى طريق الدراسة ، ويقفون حيث تقف بهم تلك المواهب ، وكل ميسر لما خلق له .

إن ذلك هو الإنتخاب الطبعى ، وتتحقق فيه العدالة الإجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، فليس تكافؤ الفرص أن يدفع الكل إلى التعليم فى كل مراحله دفعاً ، سواء أكانت مواهبه تسعفه ، أم لم تكن مواهبه مسعفة له ، بل تكافؤ الفرص أن يمكن كل ذى موهبة من أن تظهر مواهبه ، وتنكشف ، ثم يوجه إلى ما يتفق مع تلك المواهب .

وبذلك تتوزع القوى فى المجتمع ، وتعمل كل القوى فى الدائرة التى يحتاج إليها فيها .

وإن هذا الإنتخاب الفطرى لا يجعل أمراً يطلب مالا يحسن ولا يتجه إلى الدراسات العالية التى تخرج علماء إلا من هو لذلك أهل ، والأمة تنتفع منه إذا انفقت على تعليمه ، يتجه إلى الهندسة إلا من يحسنها . . وهكذا .

وإننا الآن فى مصر نشكو من كثرة المقبلين على التعليم فى المرحلة الأخيرة ، الصناعى الذى لا تختبر فيه القوى ، ولا تتميز فيه الفطر فيكثر الذين يتقدمون إلى المرحلة الأخيرة ، وفيهم من لا تقوى فطرتهم بذاتها من غير وسائل صناعية على التأهيل للدراسة العالية ، ولذلك يكثر الرسوب ، ويكثر الذين يخرجون من هذه المرحلة بوسائل صناعية أيضاً ، كالإستعانة بمدرسين ، وبذلك يخرجون غير ناضجين وغير متعمقين ، وغير متخصصين .

وإنه فى الماضى كانت الدراسة تمكن من إبراز الفطر ، فقد كان الراغبون وأن الأساس فى فهم المعجزات والأدلة الشرعية هو العقل .

وإنه فى سبيل تحرير الرأى من السلطان قرر الإسلام أن المؤمن يسير فيما يهديه إليه الدليل القطعى ولو خالف كثرة الناس ، فالعبرة باقتناعه ما دام على أساس علمى منطقى عقلى مستقيم من غير شطط ، ولقد قال تعالى . « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، وإن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » .

ولقد كان القرآن حريصاً على منع الإستهزاء بسبب الآراء ، فكان يمنع المسلمين من أن يسخر بعضهم من بعض ، ونص على أن المشركين هم الذين يستهزئون بكل

تفكير سليم يأتى به أهل الإيمان ، وقال فى المشركين : « الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

وإن علماء الإسلام من أقدم العصور احترموا نتائج العقول المستقيمة حتى إن الغزالى ليقرر أن العلوم القطعية التى لا مجال لمخالفتها إذا ورد نص فى ظاهره يخالفها أول النص بما يتفق مع ما انتهى إليه أهل هذه العلوم القطعية غير الظنية .

ولا يحارب فى الإسلام إلا الآراء التى تدعو إلى الزندقة ، أو هدم الدين .

حرية العمل والتصرف :

حد الإسلام حدوداً ، ورسم للمحرمات رسماً مانعاً ، ونهى الناس عن أن يقاربوها ، وقرر أن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، وللناس الحرية فى العمل فيما عدا دائرة الحرام ، وما حولها ، فكل يختار ما يعمله ، وما يكتسب به رزقه .

وقد حث الإسلام على العمل ، فقال تعالى : « هو الذى جعل الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور » واعتبر كسب الرزق صدقة ، وجعل كل إنتاج أياً كان نوعه صدقة ، فقد قال عليه السلام : « ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة » . وقد اعتبر النبى صلى الله عليه وسلم العامل لرزق أهله كالمجاهد فى سبيل ، ولقد قال عليه السلام : « المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل فضل » .

ولقد جاء قوم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم رجل عابد زاهد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقالوا رجل انصرف للعبادة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ومن يؤكله » قالوا كلنا يؤكله ، فقال عليه السلام : « كلكم خير منهم » وجاءه عابد آخر ، فقال عليه السلام . « ومن يؤكله ! » قالوا أخوه ، فقال عليه السلام : « أخوه أعبد منه » ولقد ترك الناس أحراراً فى تعرف أعمالهم النافعة ، وقال : « أنتم أدرى بأمور دنياكم » .

ولقد قال عمر رضى الله عنه : « لا يقعدن أحدكم فى داره ، ويقول رب ارزقنى ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

وإذا كان الإسلام يدعو إلى العمل ، فقد ترك للشخص حرية السير فى العمل الذى يريده والذى يستطيعه ويسهل عليه . وقد حمى هذه الحرية بأمرين :

أحدهما — بعدم التضييق عليه فى الحصول على نتائج عمله ، حتى إنه ليبيح لمن يحيى أرضاً ميتة لا ينتفع بها بأى نوع من أنواع النفع أن يملكها ، فيقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » وإحياء الأرض الميته يكون بجعلها صالحة للإنتفاع بعد أن كانت غير صالحة .

الأمر الثانى — منع المسلم من أن يحقر عمل أخيه المسلم ، فقد نهى الإسلام عن أن يحقر المسلم أخاه لمهنته ، أو نحوه واعتبر العمل اليدوى من خير الأعمال ، فقال عليه السلام : « ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .